

الفضاء السيبراني وتنوع الروافد الهويةاتية *Cyberspace and the diversity of identities*

رحال عبد الواحد

جامعة العربي التبسي، تبسة (الجزائر) abdelouahed.rahall@univ-tebessa.dz

تاريخ الإستلام: 2022 / 01 / 15 تاريخ القبول: 2022 / 11 / 09 تاريخ النشر: 2022 / 11 / 10

ملخص:

مع تنامي الثورة الرقمية، صار الفضاء السيبراني يمارس غوايته على الإنسان المعاصر، ويتيح له إمكانية اختيار هويته وممارستها والتعبير عنها عبر شبكات التواصل الاجتماعي التي تتقوّض في فضائها القيم الواقعية، وتتلور بحسب الجماعة الاجتماعية التي ينخرط فيها المستخدم. وتهدف هذه الدراسة إلى بيان كيفية إتاحة الفضاء الافتراضي للمستخدمين بناء الهوية الرقمية انطلاقاً من التجارب الواقعية التي تلهم مجتمعات الإنترنت، وتجعل المستخدمين يتقمّصون ذواتاً تطابق رؤيتهم إلى الذات والمجتمع والكون، ومن أبرز النتائج التي وقفت عليها الدراسة، هي أن الانخراط في البيئة الافتراضية هو محاولة لتمثيل الهوية المقموعة في العالم الواقعي، والهوية الرقمية هي جوهر وجودي يصوغه المستخدم، ويتغير بحسب السياقات النفسية والثقافية والاجتماعية. الكلمات المفتاحية: رقمنة؛ شبكات اجتماعية؛ مجتمع؛ مستخدم؛ هوية؛ هوية الرقمية.

Abstract:

With the growth of the digital revolution, cyberspace is practicing its temptation on contemporary man, allowing him to choose, practice and express his identity through social networks, in which real values are undermined and crystallized according to the social group in which the user is involved.

This study aims to demonstrate how the virtual space is available for users to build a digital identity based on real experiences that inspire online communities and make users impersonate women who match their vision of self, society and the universe. In the real world, digital identity is an existential core that is shaped by the user and changes according to psychological, cultural and social contexts.

Keywords: digitize; social networks; Community; user; identification; digital identity.

١. مقدمة

منذ أن ظهرت تكنولوجيا الكمبيوتر في أواخر الستينيات، وانفتحت المجتمعات البشرية على العالم الرقمي، انساق ملايين البشر بمختلف الفئات إلى الشبكات الاجتماعية الافتراضية، نظراً لما تتميز به هذه الشبكات من جاذبية وإغراء، لأنها توفر لهم فرصة التعبير عن امكاناتهم وقدراتهم الذاتية، مثلما وقّرت لهم المعرفة والخبرة، ونجحت في إعادة صوغ وعيهم ومفاهيمهم وقيمهم بطريقة ثورية. ولاشك أن العالم الثوري الذي نعيشه اليوم يواجه تغييرات جذرية ودائمة، ولعل السياق الذي هيأ لمثل هذه التحولات السريعة هو الإنجازات التكنولوجية الجديدة التي حققها الإنسان المعاصر، ويرى عالم الاتصالات والتكنولوجيا ومدير مشروع الإنترنت كاتالونيا في جامعة أوبرتا الإسبانية البروفيسور كاستيلز Manuel Castells Oliván، بأن التواصل يلعب دوراً حاسماً في بلورة الثقافة وتشكيلها، خصوصاً في ظل الثورة التكنولوجية المعاصرة فيقول: «من أهم نتائج تطوير تكنولوجيات المعلومات والاتصالات الجديدة، تحول الثقافات، وبسبب تطور وتوسيع مجال المعلوماتية برزت إلى الوجود ثقافة عالمية جديدة» (Castells, The information age: the power of identity, 2010).

وتحت تأثير هذا التطور تم اكتشاف أساليب جديدة للحياة في الوقت الذي يواجه فيه الأفراد روافد هوياتية لا حصر لها، والتي أدت إلى تحويل هوية الأفراد من أبعادها التقليدية إلى هويات متعددة، وتغيير أنظمة القيم، وأساليب الاستهلاك (Adibi, Yazad, & Farahmand, 2008).

ويعتبر مفهوم الهوية من أبرز مجالات البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وقد استقطب انتباه العلماء والباحثين في العقود الأخيرة، خصوصاً في هذه الفترة التي لا يمكن أن نتجاهل فيها تأثير الإنترنت والاتصالات الإلكترونية والمعلومات والبيانات في صناعة المجتمعات والشبكات الافتراضية التي يعتقد أنها أساس تشكيل الهوية الرقمية للأفراد. وإن استخدام الإنسان المعاصر لأجهزة التواصل بشكل مكثف، ينتج عنه تغيير هويته نحو هوية عبر وطنية، وهذا التغيير الذي يطرأ على الهوية قد يؤدي إلى تراجع التماسك الاجتماعي، خصوصاً لما تجاوزت وسائل الإعلام اليوم الحدود الجغرافية والثقافية والسياسية، مما أنتج هوية جديدة يمكن أن تسمى هوية الإنسان المعاصر أو هوية وسائل الإعلام.

والعالم اليوم في حاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى إلى مكاشفة الهويات والتحقق منها، بل والاعتراف بها كحقيقة فرضت نفسها في فضاءات الشبكة العنكبوتية المختلفة، مما جعلها أداة يمكن استخدامها كقوة فاعلة لفهم العالم المعاصر، وما دمنا نعيش عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فنحن بصدد مواجهة السؤال التالي: ما هو دور الشبكات الاجتماعية في تشكيل الهوية وصناعتها؟ وما هي ضرورة النظر في الهوية التي تصنعها الشبكات الاجتماعية؟ والدافع إلى هذا التساؤل يعود في الحقيقة إلى أن العديد من الناس يتفاعلون معاً على الشبكات الاجتماعية كمجتمع افتراضي يؤثر في توجيه السلوك وبلورة القيم وتشكيل الهوية، كونه «يؤدي بالفرد في حالات عديدة إلى الانعزال عن المجتمع والانكفاء عنه» (علي ع، 2017)، وللإجابة عن هذا التساؤل، تم اعتماد رؤية تحليلية تسعى إلى تفكيك وجهات النظر المتعلقة بالهوية ومجتمع المعلومات، ودور الشبكات الاجتماعية في التواصل بين الأفراد، وقد استندت هذه الرؤية على دراسات مرجعية ذات صلة بموضوع البحث أهمها دراسة عالم الاجتماع الإسباني كاستيلز Manuel Castells Oliván بعنوان عصر المعلومات: الاقتصاد، المجتمع، الثقافة. ودراسة للباحث الإيراني أمير محسن غول محمدي بعنوان "globalization, culture and identity".

ولعل من أبرز أهداف هذه الورقة البحثية، هو محاولة الكشف عن التأثيرات الاجتماعية والسياسية والأيدولوجية التي تركها شبكات التواصل الاجتماعي العابرة للحدود في سلوك المستخدمين في مختلف

الشرائح العمرية خصوصا الشباب، وكيف تتيح البيئة الافتراضية للمستخدمين فرصة اختيار هوياتهم وبناءها والتعبير عنها، وكذا التنبيه إلى قوة هذه الشبكات في تفكيك قيم المجتمعات الواقعية، ومن هنا تبدو رؤية هذه الدراسة ذات أهمية اجتماعية خاصة تمس كل المجتمعات البشرية المعاصرة خصوصا وهي الآن تمرّ بمرحلة حساسة، وتلعب فيها وسائل الإعلام الواقعية والافتراضية دورًا مهمًا في إحداث تحديات هوياتية، كما تتضح أهمية هذه الدراسة من خلال توجيه آليات استثمار وسائل التواصل بشكل يسمح للمستخدم بأن يكون طرفًا مساهمًا في صياغة حوار تفاعلي يخدم ازدهار الإنسانية وتقدمها.

أولاً: مكانة الإنترنت في حياة الإنسان المعاصر:

يبدو أن مصطلح الواقع الافتراضي virtual reality يكشف عن تناقض يتعلق بالجوهر الأنطولوجي للتجربة الافتراضية، إذ يثير جدلاً واسعاً حول الاختلافات بين التجربة الافتراضية والتجربة الواقعية، فقد صوّر بعض الباحثين ومنهم شيري توركل Sherry Turkle الفضاء السيبراني والفضاء الواقعي على أنهما عالمين لهما مساحات متوازنة توفر للمستخدمين أنواعاً مختلفة من التجارب، وفي مقارنة بين العالمين فضل مانويل كاستيلز Manuel Castells، مصطلح الواقعية الافتراضية، مشدداً على الطبيعة الواقعية للتجربة الافتراضية virtual experience، والتي هي منطلقة أصلاً من صميم العالم الواقعي.

إن الاختلاف بين هذين الوصفين يعكس تحولاً في مجال أبحاث الإنترنت، وقد أكدت الدراسات المبكرة على أن الإنترنت وسيلة ثورية قد تعزز التغييرات في النظم الاجتماعية والسياسية في العالم، كما صوّرها الدّراسون على أنها من أهم الوسائل التي تسهل فعل التحول الديمقراطي في العالم، ويمكن أن تعمل على إعادة صوغ مفهوم الهوية، ويمكن أيضاً أن تحل محل المجتمعات الواقعية، وأيضاً تغيير الطريقة التي ندرك بها الواقع (Turkle, 1995)

إلا أن بعض الأكاديميين رفضوا هذه الرؤى اليوتوبية مشيرين في ذلك إلى دور المتغيرات الديموغرافية في الحد من المساواة في استخدام الإنترنت في بلدان العالم، وأن هذه الوسيلة التكنولوجية أضعف من أن تحدث كل هذه التغييرات الثورية المزعومة لأنها ليست متاحة لكل سكان العالم، وبالتالي ستكون تأثيراتها العالمية محدودة جداً، مشيرين في المقابل إلى علاقات القوة التي تصاحب التفاعلات على الإنترنت، وبعبارة أخرى، زعم هؤلاء الأكاديميون أن شرور العالم الواقعي ما زالت قائمة رغم التأثيرات الإيجابية التي تمارسها الإنترنت في هذا العالم في كثير من الأحيان، ولكن رغم هذه الاختلافات فإن الباحثين يتفقون على التصور القائل بأن الممارسات عبر الإنترنت هي متجذرة بعمق في العالم الواقعي (Zillien & Hargittai, 2009)، لأن المستخدم هو صنيعة بيئة حقيقية قبل أن ينخرط في الفضاءات السيبرانية، وقبل أن تؤثر فيه وتبلور رغباته ورؤاه وتشكله وفق منظومة ثقافية معينة.

1- الفضاء السيبراني كبيئة اجتماعية

من المعروف أن التواصل الاجتماعي عبر فضاء الإنترنت يعتمد بشكل أساسي على التكنولوجيا، على عكس التفاعلات الاجتماعية الواقعية، ومن المعروف أيضا أن الاتصال عبر الإنترنت يتجاوز الحدود التقليدية للزمان والمكان، ولا تحده الحواجز الجغرافية والثقافية والعرقية ولا حتى الدينية، وهو -بالإضافة إلى ذلك- متاح على مدار 24 ساعة في اليوم، ولا شك أن هذه الميزة لها تأثير واسع في عالمنا الاجتماعي، وهذا ما يتضح من خلال الدراسات المنصبة على الفضاء الإلكتروني -المجتمعات الافتراضية.

وفقًا لبعض الباحثين، يمكن تفسير تصاعد ظاهرة التواصل الاجتماعي على الإنترنت بفرضية توافقية حسب منظور علم الاجتماع الحضري، والتي توزع هذا التصاعد إلى الشعور بالدور المركزي الذي تلعبه الجماعات الاجتماعية في حياتنا، والتي تمثل مصادر رئيسية للأمن والاستقرار لأعضائها (Nisbet, 1960)، ولكن بنية هذه الجماعات بدأت في التفكك بسبب هيمنة الصناعات التكنولوجية وتنامي الفردانية ووسطوة العولمة (Stein, 1972)، مما أدى إلى الإقبال على الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي بشكل واضح، وساهم في نشوء مجتمعات افتراضية ذات علاقات إنسانية ثرية، تُعرّف على أنها «تجمعات اجتماعية تظهر على الشبكة عندما يتواصل عدد كافٍ من الناس [...] في صورة نقاشات عامة وطويلة وبمشاعر إنسانية كافية تسعى إلى تشكيل شبكات من العلاقات الشخصية في الفضاء السيبراني» (Rheingold, 2000) وهذه المجتمعات الافتراضية يمكن اعتبارها بديلا عن المجتمعات الحقيقية التي لم تعد تشبع حاجة المستخدمين وعجزت عن الإجابة عن انتظاراتهم المختلفة، وهناك دارسون آخرون فضلوا استعمال مصطلح أكثر شمولية وهو " الترابط الافتراضي" virtual togetherness لوصف الأشكال المختلفة للمشاركة الجماعية عبر الإنترنت، أملا في تجنب المعيارية التي تصاحب المفهوم المعقد للمجتمع (Bakardjieva, 2003)، والذي يستوجب وجود نظام سياسي ومواطنين وحدود جغرافية يتشكل داخلها نسيج بشري خاضع لمنظومة قيمية وقانونية تمكنه من الاستمرار والانسجام لتحقيق غاياته العليا.

وعلى الرغم من أن الفضاء الإلكتروني تتم مناقشته غالبًا ضمن مصطلحات معينة مثل "الشبكة الفردية" individualism networked والشبكات الشخصية networking personalized (Wellman, 2001)، فقد صار من الضروري الآن الاعتراف بأن «الاتصال بالإنترنت هو وجود اجتماعي بالمعنى الكامل» (Van Dijk, 2006) بعبارة أخرى ، غالبًا ما تتضمن الشبكة الفردية the online individualism تفاعلاً اجتماعياً مكثفًا، ويتضح هذا المعنى في ما سمته باكاردجيفا Bakardjieva "التنشئة الاجتماعية الثابتة" immobile socialization ، وهو اتجاه ثقافي يستخدم فيه الأفراد الإنترنت للتواصل الاجتماعي من عالمهم الخاص ، لذلك ، بطريقة أو بأخرى ، نحن في الواقع نواجه بيئة اجتماعية جديدة وفريدة من نوعها تجعل الفضاء السيبراني فضاءً اجتماعيًا بامتياز ويصير التواصل الاجتماعي معه ذا قيمة عالية عندما يتعلق الأمر بالمستخدمين الذين يتعرضون للتهميش الاجتماعي.

ثانياً: الشبكات الاجتماعية الافتراضية:

لا شك أن البحث في "الهوية الافتراضية" يرتبط بشكل مباشر بما يسمى بـ "مواقع الشبكات الاجتماعية" المتواجدة على مستوى الشبكة العنكبوتية Online Social Networks Sites، ويمثل هذا البحث امتداداً لاهتمام الدارسين بكيفية التواصل الاجتماعي بين الأشخاص والمنظمات والمؤسسات المختلفة داخل ما يسمى بـ "الفضاء السيبراني"، وما يقترحه هذا الفضاء من خدمات في مجالات متعددة ومختلفة.

وقد تم تعريف الشبكة الاجتماعية الافتراضية بأنها «البنية الجديدة لعصر المعلومات، عصر المجتمع الشبكي المؤلف من شبكات الإنتاج والقوة والتجربة، حيث تقوم هذه الشبكات بدورها في بناء ثقافة افتراضية في إطار التدفقات المعومة، متجاوزة في ذلك مفهومي الزمان والمكان، وقد حصل في عصرنا هذا اختراق جميع المجتمعات بالفعل الجارف للمجتمع الشبكي» (عبد اللطيف، 2012) بشكل يمكن هذه الشبكات من استقطاب المستخدمين في أنحاء العالم بأعداد كبيرة، وبمن ثمة تفرض هيمنتها الثقافية على الأفراد وتوجههم وفق البرامج والمخططات التي تسطرها هذه الشبكات.

وتؤكد الدراسات بأن مواقع الشبكات الاجتماعية بدأت «عام 1995، ولكنها لم تنتشر إلا في عام 2003 م بظهور ما يسمى بالموجة الثانية من هذه الشبكات مثل موقعي My space.com، Facebookk.com، وهما يمثلان التطور الحقيقي للشبكات الاجتماعية» (محمود، 2017)، والمعروف أن هذه الشبكات تضم مئات الملايين من المستخدمين عبر العالم، وما زالت تحقق تزايداً كبيراً في نسبة الاستخدام حيث تمكنت أشهر تلك الشبكات من إضافة أكثر من 135 مليون مستخدم جديد خلال عام 2013... وتحتل منطقة الشرق الأوسط المركز التاسع بنسبة 24%، وغايتنا ليست معرفة الخدمات التي تقدمها هذه الشبكات للمستخدمين ولا التعرف على طرق التواصل الاجتماعي، إنما الغاية هي محاولة التعرف على دور هذه الشبكات كآليات عصرية تترجم قوة التكنولوجيا المعاصرة في خلخلة الثوابت والقيم، وتأثيرها بشكل عميق في صناعة ثقافة بديلة عابرة للهويات وموجهة للجمهور العالمي، وبالتالي فالغاية هي محاولة الوقوف على دور هذا التوجيه في تفكيك الهويات المحلية وصناعة هوية رقمية بديلة.

لقد استخدم مصطلح "الشبكات الاجتماعية" في دراسات علم اجتماع الاتصالات وعلم النفس الاجتماعي وهدف هذه الدراسات منذ عام 2005 وحتى الآن هو كيفية خلق نظام تواصل فعال بين الأصدقاء والمستخدمين المتشابهين في الرؤى والأفكار (Ziaee p.H & Aghili S.V, 2009)

وتعد الاتصالات الافتراضية دافعا رئيسياً لاستخدام هذه المساحات التي تجاوزت اتصالات البريد الإلكتروني والردشة والمدونات، فقد تم إنشاء نماذج جديدة من الشبكات الاجتماعية الافتراضية أكثر شمولاً بين الناس مثل الويكي Wiki والبودكاست podcast، وهي مساحات في العالم الافتراضي تتماثل بشكل كبير مع الفضاء الحقيقي، وقد تشكل معها ما يسمى بالمجتمعات الافتراضية التي تؤمن للمستخدمين تبادل المعلومات والآراء فيما بينهم بصورة شبه واقعية إلى درجة أن بعض الباحثين أمثال " ساذرلاند" Ivan Sutherland يعتبر العالم الافتراضي عالماً حقيقياً لأي مُشاهد مراقب ينظر من خلال شاشات الخوذة، ويتعزز ذلك بمؤثرات صوتية ثلاثية الأبعاد، وبمحاكاة وتحفيز للمس يحافظ الحاسب على نموذج العالم الافتراضي في الوقت الحقيقي، مع قدرة المستخدمين على التعامل مع معالجة الأجسام الافتراضية بطريقة واقعية حدسية (بسيوني، 2015)، ولعل هذا ما يدفعنا إلى ترجيح مصطلح "الواقع الافتراضي" بدل "العالم الافتراضي" لأن الواقع الافتراضي صار في الآونة الأخيرة فضاءً واقعياً على الحاسوب الذي يتم من خلاله بثّ

المشاهدات المباشرة وممارسة التجارة، وعقد الملتقيات والمؤتمرات والندوات والمحاضرات القضائية، والمواعيد التي تنتهي في الأخير إلى ربط علاقات حقيقية بين الأشخاص.

والشبكات الاجتماعية «هي مجموعة من وسائل التواصل الاجتماعي. تشمل المشاركة والتنظيم والتعبئة، والصداقة، والدراسة، والنقد، والمتابعة، والنشر المفتوح، والمعرفة الجماعية والعملية، والحراك الاجتماعي والإبداع» (Ziaee p.H & Aghili S.V, 2009)، ويتزايد وجود الأشخاص في هذه الشبكات بحسب إمكانية المشاركة والتفاعل الاجتماعي بينهم، لذلك ومهما كانت الروابط بين الأشخاص والأعضاء في الشبكة أكبر وأكثر كثافة، فإن الارتباط والتفاعل وتقارب الأفكار والحركة المشتركة والمتسقة ستكون أكثر ترجيحاً.

وفي الشبكات الاجتماعية، يسعى الناس إلى تحقيق أهدافهم السياسية والشخصية، والتفاعل مع الأفراد الآخرين والمنظمات (Ziaee p.H & Aghili S.V, 2009) وفي الواقع تتشكل الشبكات على أساس الهوية في المجتمع وتستمد الهويات من النماذج الدينية والعرقية والأيدولوجيات والمعتقدات المختلفة والمثل والقيم وما إلى ذلك.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما هي الآثار، التي تتركها شبكات التواصل التفاعلي العابرة للحدود في هوية المستخدمين؟

1. أشهر أنواع الشبكات الاجتماعية الافتراضية:

قسّم الباحثون الشبكات الاجتماعية Social network إلى نوعين: شبكات اجتماعية واقعية، Realistic social networks وشبكات اجتماعية افتراضية virtual social networks ، أما الشبكات الواقعية هي التي تعمل في البيئة الاجتماعية الحقيقية من خلال سلسلة من الأفراد والجماعات المترابطة اجتماعياً في بيئة أو بيئات جغرافية معينة مثل الأحزاب السياسية والجمعيات ذات الطابع الثقافي أو الاجتماعي.

أما الشبكات الاجتماعية الافتراضية فهي مواقع ويب تتيح للمستخدمين المشاركة فيها بحسب أنشطتهم واختياراتهم الفكرية؛ بمعنى آخر، الشبكات الاجتماعية الافتراضية هي المواقع التي تستخدم محرك بحث وإضافة ميزات مثل الدردشة والرسائل والبريد الإلكتروني ونقل الصوت والصورة، وتوفر المزيد من تسهيلات الاتصال للمستخدمين في شكل شبكة من العلاقات الشخصية والجماعية، ومن أشهر هذه الشبكات:

1.1 الفيس بوك (Facebook): أشهر مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت، ويوفر للمستخدم إمكانية التعرف على الآخرين من كل أنحاء العالم والتفاعل بطرق مختلفة، وقد أسس مارك زوكربيرغ "Mark Zuckerberg" هذه الشبكة بالاشتراك مع داستين موسكوفيتز "Dustin Moskovitz" المتخصص في هندسة الحاسوب، وتضم الآن أكثر من مليار مستخدم على مستوى العالم، « وقد استطاع الفيس بوك أن يجمع في موقع واحد كل مميزات التواصل على الإنترنت ... وخلقك بالآخرين وإتاحته لفكرة المجموعات لأصحاب الفكر والنشاط المتقارب أو الهويات المشتركة وأتاح لكل مستخدم بروفایل يمكنه أن يقدم نفسه للآخرين من خلاله بالكلام والصور والفيديو، ويمكنه أن يكتب هواياته وأنشطته ووضع صورته وصور أصدقائه وعائلته. ماذا يأكل وماذا يشرب وأين يسهر. من وماذا يحب أو يكره. كما أتاح تبادل كل ذلك بين مجموعة من الأصدقاء، أو الجروب الذي فيه عدد من المستخدمين تحت عنوان واحد» (علي ا، 2009)

2.1 الأنستغرام (Instagram): تقوم هذه الشبكة بخدمة مشاركة الصور والفيديوهات على الهاتف المحمول وهي متاحة لأنظمة iPhone و Android و Windows ، وقد أنشئت من طرف كيفن سيستروم "Kevin Systrom" ، في أبريل 2012 أطلقت نسخة الأندرويد، ثم نسخة سطح المكتب في نوفمبر 2012، وفي أكتوبر 2016 تم إطلاق هذا التطبيق لنظام ويندوز 10، ويسمح لمستخدميه بنشر الصور ومقاطع الفيديو في

قصصهم بشكل متتابع، وبحلول عام 2019، صارت ميزة القصص تستخدم من قبل 500 مليون مستخدم بشكل يومي (Hutchinson, 2019)

و«في ماي عام 2012 قامت إحدى الشركات المتخصصة بعمل إحصائيات للموقع، وتصلت إلى نتائج مبهمة أهمها: انه في كل ثانية يتم إضافة 85 صورة جديدة، وتحصل الشبكة على مستخدم جديد، كما يتخطى التطبيق حاجز المليار صورة مرفوعة منذ أن تمّ افتتاحه» (خفوسي، 2019)

3.1 التويتر "Twitter": تمّ تأسيسه في مارس عام 2006 من طرف أمريكيين على رأسهم جاك دورسي، Jack "Dorsey"، وبمجرد إطلاقه رسمياً في شهر أوت من العام نفسه. استقطب جمهوراً كبيراً من جميع أنحاء العالم، حيث تجاوز عدد مستخدمي الموقع 100 مليون بحلول عام 2012، ينشرون أكثر من 340 مليون تغريدة يومياً (Twitter Inc, (sd), 2012) وقد وصلت خدمة استعلامات البحث إلى 1.6 مليار في اليوم الواحد (twitter search, 2021) وفي عام 2013 صار موقع تويتر ضمن أكثر 10 مواقع زيارة في العالم. ومع بداية عام 2016 أصبح لدى تويتر أكثر من 319 مليون مستخدم شهرياً. وخلال الانتخابات الرئاسية الأمريكية 2016 امتدت شهرته بشكل أوسع، لما أثبت صدارته في السبق الصحفي، حيث نُشرت أكثر من 40 مليون تغريدة متعلقة بالانتخابات حتى العاشرة مساءً بتوقيت الشرق الأوسط.

4.1 اللينك "LinkedIn": أحد أفضل المواقع إن لم يكن أفضلها للتواصل مع زملاء العمل الحاليين والسابقين وأصحاب العمل المحتملين في المستقبل. هو موقع على شبكة الإنترنت يصنف ضمن الشبكات الاجتماعية، تأسس في ديسمبر كانون الأول عام 2002 وبدأ التشغيل الفعلي في 5 مايو 2003، يستخدم الموقع أساساً كشبكة تواصل مهنية. في يونيو 2012 بلغ عدد المسجلين في الموقع أكثر من 176 مليون عضو من أكثر من 200 دولة، الموقع متوفر بـ 24 لغة عالمية، منها العربية.

وبحسب شركة التقنية الأمريكية كوانتكاست "Quantcast" فإن لينكد يزوره شهرياً أكثر من 42.7 مليون زائر من داخل أمريكا، وأكثر من 117.2 مليون زائر من أنحاء العالم، وقد بدأت أسهم لينكد بالتداول في بورصة نيويورك في مايو 2011م. (wikipedia, 2017).

ثانياً: الهوية والهوية الافتراضية

سؤال الهوية من أهم القضايا المطروحة في الدراسات الإثنية والاجتماعية والنفسية المعاصرة، ورغم تعدّد هذه الدراسات وتنوعها إلا أنه لم يتم القبض على المعنى الدقيق لمصطلح الهوية، نظراً للمفهوم المتشعب الذي يتسع ليشمل القيم والانتماءات المتعدّدة، (إقليمية، وطنية، قبلية، طائفية، دينية، عرقية) وهذا التعدّد يحدث خلافاً على مستوى وعي الفرد بهويته وعلى المستوى الاجتماعي أيضاً، ويخلق نوعاً من الحيرة إزاء أولوية الانتماء الهوياتي.

وقد ورد في المعجم الفلسفي أن مبدا الهوية هو القول: ما هو هو، ويعبر عنه بالجملة: ب = ب أو (ب) هي (ب). وهو لا يصدق على المساواة الرياضية فحسب، بل يصدق على كل علاقة منطقية، ومن مشتقات مبدأ الهوية مبدأ التناقض Principe de contradiction ومبدأ الثالث المرفوع Principe de tiers exclu. أما مبدأ التناقض فيعني أن القول بالشيء الواحد لا يكون موجوداً ومعدوماً معاً. وأما مبدأ الثالث المرفوع فهو القول بأن القضيتين المتناقضتين لا تصدقان معاً، ولا تكذبان معاً (صليبا، 1982) مما يعني أن الهوية هي حقيقة الذات وماهيتها التي تميزها (في وحدتها) عن الآخر ولا تشترك فيها معه.

ويؤكد سعيد علوش هذا المعنى بقوله: «يتعارض مفهوم الهوية، مع مفهوم (الغيرية). وتستعمل (الهوية) للإشارة إلى المبدأ الدائم، الذي يسمح للفرد بأن يبقى (هو هو) وأن يستمر في كائنه، على الرغم من التغيرات، التي يسببها أو يعانها» (علوش، 1985)، بإضافة تعريف الفارابي الذي يورده عفيف البوني في كتابه "الهوية القومية العربية" والذي يقول فيه: «هوية الشيء: عينيته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المتفرد» (عفيف، 2013)، نستنتج أن الهوية هي مجموع السمات الخارجية والباطنية التي تتكامل فيما بينها لتحديد هوية الذات ووجودها، ويمكن تحديدها في مستويين، المستوى الفردي و«هي حقيقة فردية نفسية ترتبط بالثقافة السائدة وبعملية التنشئة الاجتماعية» (عفيف، 2013) و المستوى الجمعي وهو «مجموعة من السمات العامة التي تميز شعباً أو أمة في مرحلة تاريخية معينة» (عفيف، 2013)، أما في معجم لالاند، فالهوية تدلّ على الميزة الثابتة في الذات والمتماهية معها، وهي ميزة فرد أو كائن يُقال عنه أنه هو ذاته في مختلف فترات وجوده (لالاند، 2012).

وفقاً لعالم الاجتماع الإسباني كاستيلس "Manuel Castells"، فإن الهوية تعني «مجموع الخصائص الثقافية المترابطة التي تتعالى على جملة المعاني المرتبطة بحياة الفرد أو الجماعة» (Castells, Manuel, 2006)، ومن هنا يمكن اعتبار الهوية هي ذلك الشعور الداخلي الذي يحاول الفرد تحقيقه من خلال تلك العلامات المرتبطة بحياته الخاصة، وللإشارة فإن كل شخص ينزع إلى البحث عن هويته بصورة واعية في إطار زمكاني معين.

المفهوم الاصطلاحي: كثير من الدراسات تربط الحديث عن الهوية بشكل مباشر بـ"مفهوم الذات concept of the self، حيث يشير مفهوم الهوية «إلى تعارف جماعة معينة على أنها مجموعة متجانسة. وهي الوعي بالذات والمصير الواحد الذي يحدد توجهات الناس وأهدافهم وتدفعهم إلى العمل معا في تثبيت وجودهم، والمحافظة على منجزاتهم وتحسين وضعهم وموقعهم في التاريخ. إنها إحساس الإنسان ووعيه بالانتماء إلى مجتمع أو أمة أو جماعة» (سالم، 2009) وبموجب هذا المفهوم، فإنه لا يمكن تصور وجود جماعة بشرية دون أن تكون لها فلسفتها الخاصة، وقواعدها، ومعاييرها، أو قيمها، وعاداتها التي ترتبط بحياتها الخاصة ارتباطاً وثيقاً.

بناء عليه، يمكن القول بأن الهوية ذات ارتباط قوي بوعي الإنسان، وتنضوي داخل إطار تصوري يتم رسمه بحسب الأولويات التي يحددها في حياته، وعادة ما يتم تشكيل هذا الوعي انطلاقاً من مفاهيم وقيم محددة تستمد معناها من قيمتها ودرجة أهميتها.

والشعور بالانتماء إلى هوية ما هو نتاج انتظارات نفسية واجتماعية ضرورية في حياة الإنسان، وهذا ما ذهب إليه عالم النفس المعرفي بجامعة أولستر بيتر فاينرايتش Peter Weinreich في مقال له بعنوان "تفعيل نظرية الهوية في العلاقات العرقية والإثنية" The operationalisation of identity theory in racial and ethnic relations and ضمن كتاب "نظريات العرق والعلاقات العرقية" Theories of Race and Ethnic Relations حيث يذهب إلى أن الهوية تتحدد انطلاقاً من تأويل الشخص لذاته الفردية إذ «يتم تعريف الهوية العرقية للفرد على أنها ذلك الجزء من مجمل التأويل الذاتي للفرد المكون من تلك الأبعاد التي تعبر عن الاستمرارية بين تأويل الفرد للأصل الماضي وتطلعات المرء المستقبلية فيما يتعلق بالعرق» (Peter, 1986) بمعنى كيف يفسّر الشخص نفسه في الحاضر انطلاقاً من الماضي وما يطمح إلى أن يكون عليه في المستقبل، ولعل هذه الرؤية تسمح لنا برسم إطار تصوري للهوية من جوانب مختلفة، وبناءً على رؤية علم النفس المعرفي، فإن مصطلح الهوية يشير إلى القدرة على التفكير الذاتي وإدراك الذات.

والسؤال المطروح هو: هل كل من ينتمي إلى هوية ينبغي له أن يتبنى قيمها ويشعر بأنه عنصر من نسيجها؟ أم أن الأمر يتعلق بجدلية الانتماء والإحساس بهذا الانتماء؟

لقد اهتم علماء النفس الاجتماعي بمفاهيم الهوية والفردية وقد ركزت نظرياتهم على العلاقة بين الهوية الفردية والمجتمع، واستنتجوا بأن العلاقة بين المجتمع والهوية هي علاقة جدلية لا يمكن أن تضبط حدود التفاعل بينهما، إذ تشكل البنية الاجتماعية وسياقات المجتمع الموجودة مسبقاً هوية الشخص، والتي بدورها تتفاعل مع الآخرين وتشكل البنية الاجتماعية الجديدة والناشئة.

ومن زاوية أخرى، من المعروف في المفهوم الماركسي أن الوعي الطبقي class consciousness هو أساس تشكل الهوية الجماعية، حيث ترتبط هوية الطبقة بقيمها ومصالحها التي تتعزز بالتضامن، فالهوية الجماعية تساعد على إنشاء روابط بين الأفراد من خلال الأخلاق والأهداف المشتركة، وهنا يبدو واضحاً تركيز ماركس على السلعة والإنتاج في تشكيل الهوية.

وإذا كانت النظريات تختلف فيما بينها من حيث الرؤية إلى تشكيلات الهوية الجماعية، فمن الممكن القول بأن الهوية الجماعية تعبر عن روابط مختلفة بين الفرد والجماعة، وهذه الروابط هي التي تعكس ثقافة هذه الجماعة وأعرافها المختلفة، وترجم تلك العلاقات النشطة بين أفرادها، ويمكن أن يكون أصل الهوية من داخل المجموعة كالعرق أو خارجها كاللغة والثقافة والدين، ولكن في النهاية لا تتشكل الهوية الجماعية إلا عند تبني أعضاء المجموعة لعناصر هذه الهوية، وعلى الرغم من تحديد الهوية الجماعية لتكون مفهوماً مركزياً للذات، إلا أن كثيراً من الدراسات تؤكد على تمييزها عن مفاهيم مثل الأيديولوجيا والدافع والهوية الشخصية.

إن ميل الناس إلى البحث عن الهويات الجماعية في بعض الأحيان يؤدي بهم إلى تقمص هوية مختلفة، بطريقة يمكن أن يتنازلوا فيها عن الانتماء للعائلة والدين والعرق والجنسية والحضارة، واستناداً إلى رؤية غيدنز Anthony Giddens عالم النفس الاجتماعي البريطاني صاحب نظرية "الهيكلية" التي وضعها عام 1984م، فإن تكون الهوية هو مشروع لا ينتهي؛ والسبب هو أن الناس يستخدمون باستمرار معارفهم ومعلوماتهم في تعريف وإعادة تنظيم أنشطتهم وهويتهم وذلك بحسب تموقع الشخص في سياق اجتماعي معين، لأن هذا السياق هو الذي يفرض عليه نوعاً من مشاعر الانتماء.

وهذه الفكرة أكدها "ستيوارت هول" حينما قال: «إن الهويات لا تكتمل ولا تنتهي أبداً فهي دوماً كالذاتية نفسها في تطوّر وتغيّر» (ستيوارت، 2001). مما يعني أن هناك اتفاقاً على أن الهوية مفهوم يتسم بالمرونة وقابل للتطور والتحول، حتى أن بعض عناصرها الثابتة كالدين واللغة تخضع لنوع من التغيير ولكنه تغيير من حيث الفهم والتفسير دون المساس بالأصول، ولذلك يرى كل من مارتن أوبريون و سوبانا Obrien "Martin" و "Sue Penna" في كتابه "الحدثية التنظيرية" بأن «تمثل الهوية لدى الفرد ما هو إلا انعكاس لسياقات ثقافية واجتماعية ونتيجة لذلك تصبح الهوية معنى غير ثابت (Martin & Penna, 1999)، ومن هنا يمكن الاعتقاد بأن العمل على تحقيق الهوية هو شأن دائم ومستمر، وعليه فالهوية ليست مفهوماً يمكن تعريفه بشكل نهائي، إنما هو مفهوم رجراج ومفتوح بشكل دائم على الجدل والنقاشات، رغم ما تواجهه الهوية بشكل مستمر أيضاً من القيود المعنوية المفروضة عليها.

ومفهوم الذات لم يعد مرتبطاً بالهوية الحقيقية فحسب، إنما صار من المفاهيم التي تأثرت بالتكنولوجيات الناشئة فارتبطت أيضاً بالهوية الافتراضية أو هوية الإنترنت، وهي هوية اجتماعية ينشأها

المستخدم في المواقع الإلكترونية، تتمظهر في صورة عرض معلوماتي خاص يمكن الشخص من ممارسة نشاطه في البيئة الافتراضية.

وعلى الرغم من أن بعض المستخدمين يفضلون توظيف اسمائهم الواقعية في البيئة الافتراضية، إلا أن البعض يفضل أن يكون مجهولاً، فيختار اسماً مستعاراً للتعريف بنفسه، وهذه الأسماء المستعارة تمنح العديد من معلومات التعريف الشخصية، وبناء على ذلك فإن تحديد الهوية الافتراضية يتم من خلال علاقة المستخدم بمجموعة اجتماعية معينة هم جزء منها عبر الإنترنت.

كما يمكن للمستخدمين تمثيل أنفسهم عن طريق اختيار صورة رمزية، أو أيقونة معينة وهي إحدى الطرق التي يعبر بها المستخدمون عن هويتهم في البيئة الافتراضية خلال التفاعل مع المستخدمين الآخرين، وتكتسب هذه الهوية الافتراضية عبر الإنترنت سمعة تمكن المستخدمين الآخرين من تحديد ما إذا كانت هذه الهوية تستحق الثقة وتضمن التواصل مع صاحبها، كما ترتبط الهويات الافتراضية بالمستخدمين من خلال المصادقة، والتي تتطلب عادةً التسجيل وتسجيل الدخول، وبعض المواقع تدعم عنوان IP الخاص بالمستخدم أو ملف تعريف الارتباط من أجل تحديد هوية المستخدمين.

والراجح هو أن الشبكات الافتراضية تلعب دوراً محورياً في تحديد هذه الهوية الهلامية، لأنها تمكن مستخدميها من إنشاء مفاهيم جديدة وإعادة صوغ المفاهيم القديمة، لذلك تتشكل هذه الهوية الشخصية والاجتماعية في فضاء جدلي حيث يقوم المستخدمون ببناء وتفكيك وإعادة بناء هذه الهوية في هذا الفضاء الافتراضي الكوني، ويمكن للمستخدمين اشتقاق هويتهم من البيئة الافتراضية والغريبة عن بيئتهم الحقيقية. وبهذه الطريقة تكون هويتهم ذاتية ووهمية بدلاً من كونها حقيقية، وأحياناً بعيدة عن الواقع، وفي هذه العلاقة الافتراضية يتم تشكيل الهوية الرقمية للأفراد في مجتمع لا يعيشون فيه بالفعل، لكن في ظل وسائل إعلام افتراضية.

ثالثاً: الإطار النظري

1. نظرية كاستيلز:

يعتقد كاستيلز Manuel Castells أن حياتنا المعاصرة تتشكل من خلال مفهومين متعارضين هما العولمة والهوية، وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين إلى جانب الثورة التكنولوجية وتحول الرأسمالية وانهيار الاتحاد السوفيتي، أصبحت الأمواج القوية للهوية الجماعية تعزّز عالمنا (Castells, Manuel, 2006)، ووفقاً لكاستيلز، فإن الهوية تعني عمليات خلق الكينونة على أساس مجموعة مترابطة من الخصائص الثقافية التي تتفوق على غيرها من مصادر الكينونة، ويعتقد بفرضية أن الهويات يتم إنشاؤها، ولكنه يتساءل من الذي يقوم بإنشاء الهوية ولأي الأغراض، ويرى بأن المحتوى الرمزي للهوية وتكوينها الاجتماعي يحدث دائماً في سياق علاقات القوة، ثم يميز بين ثلاثة أشكال وأصول لبناء الهوية، تتولد عنها ثلاثة أنواع من الهوية: الهوية الشرعية، هوية المقاومة، وهوية المشروع (Castells, The information age: the power of identity, 2010).

1.1 هوية الشرعية: Legitimate identity هي تلك التي تفرضها المؤسسات المهيمنة في المجتمع من أجل توسيع هيمنتها على الجهات الاجتماعية الفاعلة وتستند إلى نمط مركزي رسمي تحاول وسائل الإعلام الرأسمالية (التي تنقل المعلومة من الأعلى، أي السلطة إلى الأسفل أي: الجماهير) الترويج له بشكل مفرط، وهذا يعني أن هوية الشرعية هي تلك الهوية التي تفرضها الأنظمة الديكتاتورية، وهذه الهوية تمثل الشكل النموذجي للأنظمة الديكتاتورية، كما تعكس « حاجات النخب الحاكمة المتزايدة، في علاقتها مع الدولة وحاجاتها للاحتفاظ

بسيطرتها السياسية في ظروف انحسار الوطنية، إلى مصادر للشرعية، مهما كانت هذه المصادر واهية أو زائفة. فمما لا شك فيه أنه كان لهذه النخب ولا يزال دور كبير في المحافظة على الايديولوجية الوطنية حية مع تحويلها بحيث تتطابق مع سلطة الدولة والولاء لها بصرف النظر عن سياساتها وتشكل تعويضاً عن تحقيق البرامج التي ترد على تطور الحاجات الاجتماعية.» (غليون، 2005). (غليون، 2005).

2.1 هوية المقاومة resistance identity: عادة ما يتم تشكيلها في مجموعات سياسية أو إيديولوجية مهمشة، وتكون ردة فعل على سياسة المؤسسات الرسمية المتسلطة الساعية إلى تعزيز الهوية الشرعية. وعادة ما تكون لهذه الهوية لغة غير رسمية تتسم بالسرية والخفاء وتستعمل الوسائط الأفقية التي تمرر المعلومة بشكل أفقي بين الناس، وهذه الوسائط تمثل «الإعلام البديل الذي يهدف إلى الوقوف في وجه السلطات القائمة ليمثل الجماعة المهمشة ويعزز الروابط الأفقية بين الجماعات ذات المصالح المشتركة» (الطعاني، 2020) والتي تهدف إلى مقاومة الهيمنة والقهر، تأسيساً على عناصر موروثه كالدين، والعرق، وتستخدم في الدفاع عن قيم متأصلة وثابتة في بنية جماعة مهددة في وجودها بأخطار التهميش أو التفكيك

3.1 هوية المشروع Project identity: هي هوية مهمة تحاول أن تكون لها وظائف ضرورية ومطلوبة وأكثر تعقيداً من الهويات الأخرى، وهي تحاول تضيق الفجوة بين هوية الشرعية وهوية المقاومة، وسياق المجتمع أكثر حاجة لهوية المشروع، وفي الواقع هوية المشروع هي عندما تقوم الجهات الفاعلة الاجتماعية باستخدام أي حل توفيق مادي وثقافي متاح، ببناء هوية جديدة تعيد تحديد مكانتها في المجتمع وبالتالي، فبعد تحول الهيكل الاجتماعي بأكمله، يتحقق هذا النوع من الهوية (Castells, Manuel, 2006)، وهوية المشروع هدفها هو إعادة تعريف موقع جماعة اجتماعية معينة من خلال اقتراح منظومة قيم جديدة مستمدة من البنية الثقافية المتاحة لهذه الجماعة، وذلك من أجل بناء هوية جديدة تسعى إلى تحويل البنية الاجتماعية دون الاستغناء عن العناصر الثقافية العامة الموروثة دفعة واحدة، في الوقت الذي تتبقي فيه منظومة قيمية جديدة وتوسع لترسيخها اجتماعياً.

إن مآلات كل من هذه الهويات حسب كاستيلز، تعتمد على طبيعة السياق الاجتماعي، ويمكن القول إن الشبكات الاجتماعية عن طريق إنشاء اتصال تفاعلي ثنائي الاتجاه لمستخدميها، يمكن أن تساعد في تحديد هوية المشروع ومنع أزمة الهوية في المجتمع عن طريق سد الفجوة بين السلطات والأفراد، وتساعد على خلق هوية جديدة

2. نظرية جيدنز:

ناقش جيدنز Ward Giddens مسألة الهوية الشخصية في إطار الحداثة والعولمة والهجرة، معتقداً بتأثير ظاهرة العولمة في تحول الهوية الشخصية، وقد شكل في الآونة الأخيرة جدلاً واسعاً على المستوى المحلي والعالمي عندما ذكر بأن التغيرات التي تطرأ على الجوانب الخاصة جداً من الحياة الشخصية لها علاقة بالسياقات الاجتماعية واسعة النطاق، وأن وسائل الاتصال في العالم الواقعي قد فرضت نفسها بشدة في تحولات الهوية الشخصية للفرد، لأن تفاعله مع بيئة عالمية يحدث لأول مرة في تاريخ البشرية بهذا الشكل.

وقد ذهب "جيدنز" إلى أن هناك عدة عوامل تؤثر في علاقة الهوية الشخصية بالمؤسسات الاجتماعية. وقد امتدت انعكاسات التحديث هذه إلى أعماق الإنسان، أما في الثقافات التقليدية تبقى كل الشؤون الاجتماعية كما هي دون تغيير من جيل إلى آخر، والتغيير في الهوية الاجتماعية يتعرض للخلخلة المستمرة في الواقع على العكس في المجتمعات الحديثة التي ينبغي فهم الذات المتحوّلة من خلال الاستكشاف

الشخصي، ويجب النظر إلى هذه الذات وأيضا إلى بنائها كجزء من عملية الاتصال المتبادل بين التغييرات الشخصية والاجتماعية.

إن الهوية الشخصية كظاهرة عامة تتطلب حالة من التأمل الواعي، وهي في الواقع ما يدركه الفرد، بمعنى آخر، هوية الشخص ليست معنى خارجا عن إرادته وليست تكليفا نتيجة لاستمرار الممارسات الاجتماعية، بل هي ما يجب على الشخص خلقه بشكل مستمر وروتيبي ودعومه في أنشطته المتنوعة.

ووفقا لجيدنز، فإن إحدى السمات اللفظية للهوية الشخصية هي التمايز النحوي لـ "أنا - أنت". لذلك، يمكن القول إن الهوية الشخصية هي وعي الفرد المنفتح على أنه (Glenn, 2008)، ويعتقد جيدنز أن الإنسان يتفاعل مع الآخرين ويخلق هويته ويغيرها باستمرار طوال الحياة، فالذات ليست مفهوما سلبيا لا يمكن تشكيله إلا تحت تأثير العوامل الخارجية، بل هي ناجمة عن التفاعل بين الداخل والخارج. بمعنى أن الهوية يتم إنشاؤها بواسطة الفرد.

رابعا: تأثير الشبكات الاجتماعية الافتراضية في الهوية:

يذهب مانويل كاستلز إلى أن «القوة المتنامية للهوية (بجانب بروز المجتمع الشبكي) يمثلان العمليات الاجتماعية المتشابكة التي تقوم، باشتراكها معًا، بتعريف العولمة، والجيوسياسية، والتحول المجتمعي في بواكير القرن الحادي والعشرين وكذلك فإن الصراعات الاجتماعية الأشد مأساوية التي شهدناها تمت استثارها بالمواجهة بين هويات متعارضة» (Castells, 2010).

وفي عصرنا هذا، هناك حاجة لإظهار الهوية الشخصية وتأكيدا أمام الآخرين داخل الشبكة الاجتماعية، والتي يمكن للشخص أن يستخدمها كقوة أساسية لفهم العالم ويقدم نفسه للآخرين من خلالها. لذلك، فإن دراسة الهوية وتأثيرها بهذه الشبكات لها أهمية كبيرة، لأن مستخدمي هذه الشبكات يواجهون أزمة هوية حادة، وفي هذا السياق يرى كبير علماء النفس الاجتماعي إيرفينغ غوفمان Erving Goffman في كتابه *The Presentation of the Self in Everyday Life*، أن الهوية هي جهود الشخص لإظهار معالمه المميزة عن الآخرين، في الوقت الذي يصوغ فيه سلوكه (Goffman, 1959).

والحقيقة أن مصطلح "التفاعلية" Interactive اتضحت حدوده المفاهيمية عندما طور عالم النفس الاجتماعي هنري تاجفيل Henri Tajfel النظرية الاجتماعية للهوية Social Identity Theory، مؤكدا على أن الهوية الاجتماعية هي وعي الشخص بالانتماء إلى مجموعة اجتماعية معينة، والإحساس بقيمة وأهمية عضويته في هذه المجموعة، وقد أثار عالم الاجتماع الإنجليزي "تيرنر" John Charles Turner هذه القضية عندما تساءل عن سلوك الجماعة هل هي فعل اجتماعي أو سيكولوجي أم أن هذا السلوك يختلف عن المميزات الفردية للأشخاص، وهل الجماعة كيان نتخيله أم إنها واقع حقيقي؟ «إزاء ذلك افترض "تيرنر" أن ما قد يظهر ليكون سلوكا مميزا لجماعة، ما هو إلا استجابة فردية لمثيرات أو لمواقف اجتماعية مختلفة» (مأمون، 2014).

وقد أكد باحثون في علم النفس الاجتماعي خلال حديثهم عن " مفهوم التفاعلية" أن الخصائص النفسية قد تغيرت بصورة كيفية عن طريق تعاظم الفرد مع المجتمع، فمن خلال التفاعل الاجتماعي لأعضاء جماعة ما، تنشأ نواتج اجتماعية منها: المعايير والقيم والأفكار المنمطة، حيث تستدمج interalized بطريقة ما وتنقل إلى الأفراد» (مأمون، 2014).

أما "كاستيلز" فيرى «أن الهوية مشروع تنموي إنتاجي، لا معطى تراثيا ماضويا، ولا دورانا حول الذات التاريخية» (خير الدين، 2016) وهذا يعني أنها هي مصدر المعنى والخبرة للشخص وهي عملية خلق المعنى على أساس الثقافة أو الخصائص الثقافية المترابطة التي يمكن أن تهيم على غيرها من مصادر المعنى داخل لكل فئة أو كل مجموعة.

نفهم من ذلك أن التفاعلات الإنسانية هي أحد العوامل الأساسية في تكوين الهوية الاجتماعية، فعندما يتفاعل شخص ما مع شخص آخر يكتشف هويته كعضو في المجتمع، وعليه يتم تعريف الهوية في سياق التفاعلات الاجتماعية، واليوم أصبح الناس من خلال تقنيات المعلومات والاتصالات مجتمعا متزامنا (ولكن مع اختلاف المواقع الجغرافية) هذه التقنيات التي جعلت تطوير الاتصالات وتراكم البيانات ذات ترابط شديد.

إن الاتصال عبر الفضاء الإلكتروني يوفر ميزات خاصة للمستخدمين تجعلهم مختلفين عن الآخرين بحيث تخلق لهم الشبكات الاجتماعية "هوية افتراضية" ومع الهويات الفردية تتشكل هويتهم الخاصة، إضافة إلى ذلك فإن العلاقات الافتراضية، توفر سرعة التواصل لهؤلاء المستخدمين مع الإبقاء عليهم مجهولي الهوية وتوفير بيئة متماثلة لهم بغض النظر عن الخصائص المختلفة التي يتميزون بها مثل الجنس والفئة والعرق والمكان.

إن التفاعلات التي تحدث في هذا الفضاء تخلق وعيا جديدا للمستخدمين ففي الوقت الذي لا يمكنهم فيه تغيير سلوكهم وتفاعلاتهم في العالم الحقيقي، فإن اتصالات الإنترنت يمكن أن توفر لهم مزيداً من الحوافز للتلاعب بالهوية والسلوكيات والمواقف وفي هذا السياق غير الواقعي تتضاءل لدى المستخدمين مشاعر الخجل والتردد وتنمو لديهم مظاهر التلقائية وبوادر التعبير الحر.

الاتصالات الحديثة وتكنولوجيا المعلومات تؤدي إلى تشكيل مجتمعات وهويات جديدة، فالإنترنت والإلكترونيات اليوم تهيم على المجتمع البشري من خلال الاتصالات والبيانات والمعلومات، والمجتمعات الافتراضية تبني هوية الأفراد. وتخلق أدوات المعلومات والاتصالات الحديثة تغييرات في المفاهيم الفردية كما تعمل على خلق مواقف جديدة مختلفة تماماً عن الماضي وقد يصل هذا الاختلاف إلى درجة التناقض.

إن الهوية في المجتمعات الافتراضية عابرة للحدود حيث يمثل مجتمع المعلومات الحركة غير المستقرة والمتغيرة والمرنة للإنسان المعاصر، ففي هذا المجتمع لا يعتبر قرب الأشخاص من حيث الموقع مؤشراً للعلاقة الحميمة، ويمكن للأشخاص في مختلف بلدان العالم التواصل فيما بينهم والشعور بالعلاقة الحميمة باعتبار وجود هوية متطابقة، وعادة ما يكون بين هؤلاء الأشخاص رابطاً مشتركاً يتمثل في المصالح والفوائد التي تجمع بينهم، في مقدمة ذلك الوصول إلى المعلومات.

إن هوية الأفراد في المجتمعات الافتراضية هي "الهوية الرقمية" التي تتسم بعدم الاستقرار، وعناصر الهوية الواقعية كالحيز الجغرافي واللغة الأصلية والمحلية، والثقافة الوطنية، والعرق، والدين لا تمثل هويات الأفراد في المجتمعات الافتراضية، بل المصالح والاهتمامات المشتركة التي تجمع بين المستخدمين هي التي تبني هويتهم، وتقنيات الاتصالات المعاصرة توفر إمكانية وجود مساحة خاصة جديدة للأفراد من خلال إنشاء ذات رقمية digital self في الفضاء الإلكتروني، ففي هذا الفضاء يتواصل الأشخاص مع بعضهم البعض ومن خلال الاستفادة من مرافق الإنترنت مثل الشبكات الاجتماعية وغرف المحادثة، يتم تشكيل شبكة واسعة من العلاقات بينهم بعيداً عن المراقبة والتحكم، وهذا يؤدي تدريجياً إلى التنصل من الشبكات التقليدية للعلاقات مثل القرابة الجغرافية.

وخلق هذه الهوية تجعل الأفراد متميزين عن العالم الحقيقي، ولعل من أهم ميزات الشبكات الاجتماعية هو زيادة الأهمية الفردية والمجال الخاص مقابل المجال العام، إذ أن الأشخاص في الشبكات الاجتماعية يمكن أن يكونوا حاضرين في مجموعات مختلفة وفي بعض الأحيان في المجموعات قد تتعارض مع هويتهم الحقيقية، وفي الوقت نفسه يمكن أن يشعروا بتمييزهم عن الآخرين نتيجة لعدم وجود سلطة هرمية في هذه الشبكات من ناحية، وعدم تعرض الفردانية إلى المساس أو الاعتداء في هذا المجتمع من ناحية ثانية، وهذا على خلاف العالم الواقعي الذي صار يعرف اليوم بمحدودية العلاقات الاجتماعية، نتيجة لتأثير عوامل اجتماعية وثقافية وحتى سلطوية، ولكن في العالم الافتراضي يتم إزالة الحدود حيث يواجه الشخص على نطاق عالمي العديد من الخيارات، بمعنى آخر؛ إن تكوين المجتمعات في الفضاء الإلكتروني على أساس الوضع الاجتماعي يجعل المجتمعات تصبح تدريجية باهتة وغير مهمة في العالم الواقعي، وهذا يعني أن مصدر الهوية يصبح متعددًا ومتنوعًا مما يمكن الناس من تجربة هويات مختلفة، ولكن إذا فشل هؤلاء الأشخاص في إقامة توازن بين الفضاء الحقيقي والفضاء الإلكتروني، سيخلقون هوية مزدوجة لأنفسهم وسيواجهون أزمة هوية.

مع ظهور الشبكات الاجتماعية، تمت صناعة شكل جديد من أشكال الحياة في الفضاء الإلكتروني وأصبحت العلاقات بين الناس مختلفة عن شكلها التقليدي كما تم خلق تأثيرات لا يمكن إنكارها على العلاقات الاجتماعية، والشبكات الاجتماعية هي واحدة من وسائل الإعلام الأكثر شعبية وخاصة لدى فئة الشباب، وتعتبر التفاعلية وتوفير أسس للعلاقات الاجتماعية من بين أسباب شعبية الشبكات الاجتماعية، بحيث يكون الشخص مرتبطًا بمجموعة واسعة من الأشخاص تشاركه اهتماماته في مجالات مختلفة، ومن هنا يمكن للأشخاص على الشبكات الاجتماعية الحصول على الهوية التي يختارونها، وعلى هذا الأساس يمكنهم توسيع علاقاتهم الافتراضية مع الآخرين.

ومع تراكم المعلومات وتنوع أساليب الاتصال التي توفرها هذه الشبكات، يمكننا الحصول على هوية أكثر مرونة من ذي قبل، ويتم إنشاء مجموعة جديدة في حياتنا، وفي هذا السياق وظّف الفيلسوف الأمريكي "رورتي" Richard Rorty مصطلح "إعادة الوصف" Re-description كمنهج جديدة للفلسفة يختلف عن فلسفة التنوير التقليدية، ويشير من خلال هذا المصطلح إلى أن المجموعات البشرية في مجتمع ما بعد الحداثة مقبل على خلق لغة جديدة تختلف عن اللغة القديمة، وهي لغة أقرب إلى الحقيقة وأكثر فائدة بحيث تقوم على الانفتاح وتقبل الآخر وهذا التحول له نزعة براغماتية، ويعتقد أنه في عصر ما بعد الحداثة سيتم اقتراح مفهوم واسع للتضامن الجماعي، الذي لا يعني رؤية تكاملية مفاجئة ولكن يتم تحقيق هذا التضامن في سياق التعدد والتنوع، ومن هنا يمكن القول بأن الشبكات الاجتماعية هي الأداة التي يمكن أن تحقق هذا التقارب الذي يساهم في تشكيل الهوية الافتراضية والتي تؤمن الانعتاق من القيود وهو انعتاق لم يكن الواقع قادراً على تأمينه للأفراد في السابق.

كما أن المشاركة في الشبكات الاجتماعية، من ناحية أخرى، يقلل من ضغوط التكيف مع توقعات المجموعة الاجتماعية في العالم الواقعي، ويمنح الفرد حرية أكبر لتحقيق "هويته المثالية" والتفاعل مع الآخرين، ومن ناحية أخرى فإنه يقلل من الضغوط البيئية والجغرافية على المستخدمين.

خاتمة:

* بتجاوز وسائل الإعلام الحدود الجغرافية والثقافية والسياسية، فقد تجاوزت أيضا المجال الاجتماعي والسياسي مما جعلها تؤثر في هوية الإنسان المعاصر، بطريقة يمكن أن تسمى من خلالها هوية الإنسان الحديث أو هوية وسائل الإعلام.

* الهوية ليست ذات مفهوم جوهري، ولكنها جوهر يصنعه الإنسان ومجتمعه، ويتغير في سياق التحول الاجتماعي ويأخذ شكلاً مختلفاً، كما أن الهوية ليست شيئاً غريزياً وفطرياً ولكنها تكتسب طواعية، وعلى أساس تنشئة الإنسان. ومن هذا المنظور تصبح وسائل الإعلام واحدة من العوامل الفعالة في تكوين وتطور الهوية، وخاصة في العالم المعاصر المعروف باسم عصر التواصل.

* لا شك أن هذه التقنيات من صنع الإنسان، ولكنها تتميز عن باقي التقنيات التكنولوجية من خلال اختراقها لحاجز الزمان والمكان والتقريب بين الناس بشكل قد يفوق العالم الواقعي وفي هذا السياق، يحدث البحث عن الهوية من خلال تدفق المعلومات وتداولها على هذه الشبكات، إلى درجة تجعل الناس يلاحقون هويتهم، والتي تم قمعها على مر التاريخ وعلى وجه الخصوص، في المجتمعات التي تم فيها تنفيذ عملية بناء الدولة بشكل ينتهك حقوق الإنسان.

* تسارع المستخدمين لاكتساب العضوية في الشبكات الاجتماعية، هو محاولة لتمثيل وإعادة بناء ثقافتهم، ولولا قمع الهوية في العالم الواقعي لما انضم الأفراد إلى هذه الشبكات لتمثيل هويتهم المكبوتة، بل سيكون انضمامهم إلى هذه الشبكات فقط لتعزيز المشاركة في عالم عبر وطني وهوية عالمية جديدة.

* في العصر الذي نعيش فيه، أكثر من أي وقت مضى، هناك حاجة للتعبير عن الهوية وتأكيداتها من قبل المستخدم داخل الشبكة، حتى يتم اعتمادها كقوة أساسية لفهم العالم وكأداة للتعريف بالذات، لأن طبيعة العالم تتشكل وفق نسق ثقافي بالدرجة الأولى.

* زمن إضفاء الشرعية على الهويات من قبل السلطات والحكومات قد انتهى خصوصاً مع ظهور مجتمع المعلومات وزيادة الوعي الاجتماعي وتحويل التواصل في اتجاه الهوية الرقمية.

الإحالات والمراجع:

المؤلفات

- البسيوني محمد علي، دولة الـ Facebook، دار الشروق، (القاهرة، 2009)، ص 05.
- البوني عفيف، في الهوية القومية العربية "الهوية وقضايا في الوعي العربي المعاصر" مركز دراسات الوحدة العربية، (القاهرة، 2013)، ص (23، 67، 30).
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، عوידات للنشر، (بيروت، 2012)، ص 607.
- برهان غليون، العولمة وأثرها على المجتمعات العربية، لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا، (بيروت 2005)، ص 09.
- بسيوني محمد علي، تكنولوجيا الواقع الافتراضي، دار النشر للجامعات، (القاهرة، 2015)، ص 46.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1982)، ص 532.
- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1985)، ص 225.
- سليمان الطعاني، الوجيز في التربية الإعلامية، دارا لخليج للنشر والتوزيع، (عمان، 2020)، ص 199.
- طربية مأمون، السلوك الاجتماعي في الجماعات غير المنظمة " رؤية علمية في دينامية الجماعات وأشكالها"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر (القاهرة، 2014)، ص 106.
- عبد العزيز خنفوسي، مدخل إلى قانون الملكية الفكرية، مركز الكتاب الأكاديمي، (عمّان، 2019)، ص 153.
- عبد الله محمد علي، شباب الفيس بوك والعالم الافتراضي، وكالة الصحافة العربية ناشرون. (الجيزة، 2017)، ص 45.
- كمال عبد اللطيف، المعرفي، الأيديولوجي، الشبكي، تقاطعات ورهانات، المركز العربي للأبحاث والدراسات، (عمّان 2017)، ص 32.
- لبيض سالم، الهوية، الإسلام، العروبة، التونسية، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت 2009)، ص 33.
- نصر عبد الرحمن خير الدين، نحو ثقافت موازن، أمواج للنشر والتوزيع، (عمان 2016)، ص 236.
- هارون طارق محمود، الشبكات الاجتماعية على الإنترنت وتأثيرها في المعرفة البشرية، النظرية والتطبيق، دار الفجر للنشر والتوزيع، (القاهرة 2017)، ص 14.
- هول ستيوارت، هويات قديمة وجديدة، إثنيات قديمة وجديدة، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة 2001)، ص 79.
- Adibi M, Adibi M, Yazd hast B, & Farahmand M, (2008), *Globalization with an emphasis on youth social identity. National Studies, Isfahan, P25.*
- Castells, M., (2006). *The Information Age : Economy, Society and Culture Volume 1 : The Rise of the Network Society. 2nd éd. Oxford : Wiley Blackwell.p125.*
- Castells M, (2010), *The information age, The power of identity. Wielely-Blackwell, P93.*
- Dreyfus H. L, (2004), *on the internet, Saghi Publishing Tehran, p112.*
- Goffman E, (1959), *The Presentation of the Self in Everyday Life,(Anchor Book, New york, P45.*
- Penna S, & Obrien M, (1999), *Theorizing Modernity : Reflexivity, Environment & Identity in Giddens'(Social, London : Logman, London, P170.*
- Ward G,(2008), *postmodernism, translated to Fakhr Ranjbari. (Tehran Fish Publishing, tehran, p.153*
- Marciano, Avi.(2014), *Living the VirtuReal: Negotiating Transgender Identity in Cyberspace". Journal of Computer-Mediated Communication. Oxford, pp : 834-835.*
- Nisbet, R. (1960). *Moral values and community. International Review of Community Development, 5, p77-85.*
- Rheingold, H. (2000). *The virtual community : Homesteading on the electronic frontier (Revised éd.).Cambridge, MA : The MIT Press.P 414.*
- Stein, M. R. (1972).*The eclipse of community : An interpretation of American studies (Expanded éd.).Princeton, NJ : Princeton University Press.P47-66.*
- Turkle, S. (1995), *Life on the screen : Identity in the age of the Internet. New York : Simon & Schuster.*
- van Dijk, J. (2006). *The network society : Social aspects of new media (2nd éd.).Thousand Oaks, CA : Sage.P168.*
- Wellman, B. (2001). *Physical place and cyberplace : The rise of personalized networking. International Journal of Urban and Regional Research, 227-252.*
- Ziaee P. H, & Aghili, S. V, (2009), *Penetration of virtual social networks in the Forums. Journal of Media, P36.*

- Zillien, N., & Hargittai, E. (2009). *Digital distinction : Status-specific types of internet usage*. *Social Science Quarterly*, University of Texas Press, p, 274–291.

مواقع الإنترنت

- Hutchinson, A, (2019), *Instagram Stories is Now Being Used by 500 Million People Daily*, Récupéré sur centent and Social Media Manager, www.socialmadeiatoday.com, (Accessed 01-07-2021)
- Twiter Inc, (sd21) .(2012), *twitter turns six* .twitter: blog.twitter.com, (Accessed 17/07/2021)
- twitter search, *The Engineering Behind Twitter's New Search Experience* Web.archive.org: <https://blog.twitter.com/>(Accessed 2021 ,05 12)
- wikipedia. (2017). *LinkedIn , M. Wiki, Producteur, & Microsoft*, sur Wikipedia, the free encyclopedia: <https://ar.wikipedia.org/>(Accessed 20/12/2021)